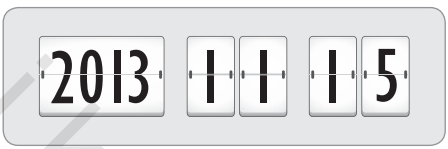

بـدأت هيـلاري الكلام: نعم دكتورة! هل أصبحت قادرة على الكلام عن بل؟ صرت في المحطة التي التقيته فيها في هذه القصة الملحمية.

ابتسمتُ وأجبتها: إذا كنت جاهزة.

يا إلهي! أنا جاهزة منذ لحظة دخولي العيادة ولكنك لم تدعيني أفعل!

ابتسمتُ ثانية وقلت: لا أظن أن أحدًا استطاع أن يمنعك من فعل أي شيء!

صحيح، دكتورة، أنت على حق في ذلك! وافقت هيلاري مبتسـمة. لنبدأ! إذا كنـت سـتقولين لي شـيئًا، فمـن الأفضل أن تقوليـه الآن وإلا فسـتكونين مضطرة لالتـزام الصمـت إلى الأبد؛ لأنني إذا بدأت الكلام عن بل فقد لا ترغبين سـماع أي شيء آخر مني لبعض الوقت. ابتسمت مرة أخرى.

كنـت في مكتبـة بيـل، أطالع كتـاب كارل أوغلزبي غربـان في العاصفة: تاريخ شـخصي لحركـة معـاداة الحرب في السـتينيات، حين لفت نظـري على الطاولة المقابلة هذا الشـاب الوسيم الذي بدا واحدًا من الفايكنغ بشعره الطويل ولحيته الشـعثاء، ظـل يحدق بي. لم أسـتطع تصور السـبب، نظـرًا إلى أنهـا كانت المرة

الأولى في حياتي التي لم أكن فيها بكل تأكيد مثالًا لفتاة غلاف. كنت أرتدي سروالًا جَرَسيًّا، واضعة على عيني تلك النظارات العملاقة، وأسوق سيارة مهترئة قديمة ذات سقف من الفرش المربوطة. قذفت ذراعي أمام عيني كي أخرجه من ساحة رؤيتي لأتمكن من مواصلة قراءة كتابي دون شرود.

ما أثار اشمئزازي أنني عجزت عن التركيز، حين أنزلت ذراعي، كان لايزال محدقًا. قلت في نفسي: من الأفضل أن أفعل شيئًا، طالما لم أكن قادرة على القراءة، على أي حال. مشيت نحوه مستعدة لأقول له: ما الذي تنظر إليه، يا زميل؟ ألم يسبق لك أن رأيت سيدة من قبل؟ إلا أنني ولدهشتي، بادرت بدلًا من قول ذلك إلى مد يدي قائلة: «دائب أنت على التحديق بي منذ وصولي إلى هنا. هل تريد أن تعرف اسمي؟ أنا هيلاري رودهام. وما اسمك أنت؟».

ابتسم ابتسامته الرائعة تلك، مد يده، وقال: «أنا بل كلنتون». غير أنه حين حاولت استرجاع يدي، منعني من سحبها، ظل ممسكًا بها وينظر في أعماق عيني. وقفنا هناك، متجمدين معًا للحظات، وأحسست برعشة خوف منزلقة على عمودي الفقري. في مكان ما شعرت بأنني وقعت في المصيدة مدى الحياة، وبتنا بالفعل منذ تلك اللحظة غير قابلين للانفصال.

فكرت: لا غرابة أنها ليست حدسية؛ فحين يُحْدَس بشيء، يكون الأمر بالغ العمق ومخيفًا إلى درجة الموت؛ من الأفضل عدم معرفة الشيء بدلًا من الانسحاق خوفًا منه الوقت كله!

نظرت إلى اليد الممسكة بيدي وأذهلتني بجمالها. نظرتُ إليّ بثبات وقالت تبدين متفاجئة دكتورة، لماذا؟ ألا أبدو كأولئك الذين يعجبون بالأشياء الجميلة ويلاحظونها؟ بل بالغ الروعة، مازلت مغرمة بالنظر إليه. رسغاه ضيقتان وأصابعه الطويلة أنيقة أشبه بأصابع أي جراح أو عازف بيانو. أعشق النظر إليه وهو يقلب صفحات كتاب، وأستطيع أن أبقى متابعة إياه وهو يفعل ذلك إلى ما لا نهاية، لم يسبق لي أن التقيت شخصًا مثله.

وتابعت: لسنا بصدد الحديث عن شاب يبدد أي وقت! جلست بجانبه بلا دعوة، وعلى الفور بدأ يحدثني عن نفسه، عن التفوق الذي مكنه من الفوز بزمالة رودس، عن أمه المحبة، عن أبيه الراحل، عن طفولته الوحيدة، عن طموحاته، عن كل شيء يخصه. وكما لو كان يحذرني، قال إنه كان سيرفض عروض الشركات الحقوقية جميعها، وسيعود إلى آركنسو بعد مدرسة الحقوق. قال: وسأصبح حاكمًا! لاحظي أنه لم يقل إنه كان سيحاول أن يصبح حاكمًا، بل كان سيصبح حاكمًا.

فيما بعد، أخبرني أنه كان يراقبني منذ شروعنا كلينا في حضور الحصص الحقوقية نفسها؛ أفاد بأنه لم يكن قد سبق له قط أن رآني، وكان جالسًا في الصف الخلفي من مقاعد الغرفة عندما لاحظني للمرة الأولى، أقر بأنه فوجئ بقوتي ورباطة جأشي ومدى معرفتي الدائمة لأجوبة أسئلة الأساتذة، قال إنه بدأ يلاحقني في المدينة الجامعية. مضحك حقًّا! لم أدرك ذلك إلى أن أخبرني به.

صارحها مباشرة برغبته في رفقتها الدائمة، وبأنه لم يكن يمل منها قط، وفي مرحلة مبكرة جدًّا من علاقتهما عبر عن استعداده بشغف لأن يكبر معها.

تابعت هيلاري: ارتبكت. حتى في البداية الأولى، أوهام الاقتران به زواجًا راحت تطن في أعماق رأسي؛ أنا هيلاري دائمة الانضباط ورجاحة العقل! تصورت أنه كان قد قرر سلفًا أن يطلب مني الاقتران به زوجًا، ورحت أنظر في الاقتراح. أدركت أنني إذا سايرت مخططاته فإن من شأن الأمر أن يكون أشبه بالانتساب إلى فريق كرة قاعدة ثانوية على أمل الارتقاء يومًا إلى مستوى فريق رئيسي.

بالمقابل، إذا حذوت حذو نجمي، فقد أخسره. لم يبدُ الوضع واعدًا بقوة. ومع ذلك، فإننا تابعنا الجلوس غارقين في الكلام إلى أن اضطر الناظر لطردنا من المكتبة. على الدوام درجت على أن أكون محكومة بعقلي لا بقلبي، إلا أن

بل رجل شديد الإغواء؛ ومهما بدا الأمر غير وارد بالنسبة إليَّ أنا الباردة والمحتشمة المتحفظة، فإنني رافقته إلى غرفته. أحيانًا أفكر أنه كان على أبويَّ أن يقيداني بالحبال.

فكرت: يقوم بل بسد الفراغ الموجود عند هيلاري؛ كله قلب وعواطف، في حين أنها، كلها، رأس وعقل. معًا يشكلان شخصًا كاملًا.

تابعت هيلاري الكلام: مباشرة أضفى على حياتي متطرفة الاحتشام طوفانًا من المرح والألق؛ حولني إلى امرأة زاخرة بالشغف، صرت غارقة في بحر من العواطف التي لم أستطع التحكم فيها؛ أصبح السؤال الجوهري في حياتي متمثلًا بـ: هل يجب عليَّ أن أختار المتعة أم ضبط النفس؟ للمرة الأولى في حياتي راح ميزان زئبق أمي ينصرف في المكان كله. لم أعد أستطيع أن آكل، لم أعد قادرة على النوم، لم أعد قادرة حتى على الدراسة؛ لم أعرف ما العمل؛ كل ما كنت أعرفه هو أننا كنا متناسبين تمامًا، طنجرة عثرت على غطائها، يدٌ اهتدتْ إلى قفازها. استغرق بقاؤنا في السرير مدة ثلاثة أشهر.

قررت مناقشة هذا كله مع أحدهم – وأنا الشهيرة بعدم الكلام بالمطلق عن ذاتي مع أحد – اخترت صديقي السابق؛ ديفيد روبرت الذي كان صافي الذهن مثل أي ممن كنت أعرفهم، لألتمس منه النصح.

قلت له: «أعاني مشكلة يا ديفيد؛ أنا مجنونة بحب هذا الزبون بل كلنتون الذي يقول إنه سيصبح حاكم آركنسو. يقنعني مئة بالمئة بأنه سيفعل، ذلك هو الشخص، أجدني ميالة إلى الذهاب معه إلى آركنسو، ولكن ماذا عندئذ عن طموحاتي أنا؟!».

جعَّد جبهته وسألني سؤالًا وحيدًا: «هل تحبين بل؟». ودون إضاعة نبضة واحدة، أجبت: نعم؛ قال: «مبارك، إذن تابعي!» عانقته فكشفت سلفًا تأثير بل فيَّ. كان ديفيد قد قال ما كنت راغبة في سماعه تمامًا.

وأنـا في السـنة الثالثة بييل، انتقلنـا بل وأنا معًا، اسـتأجرنا بيتًا على الطراز الفكتوري، خارج المدينة الجامعية، بيتًا ذا مدخل مسقوف مؤطر بأعمدة بيضاء، إلا أن الأمور لم تكن مسـتقرة فيما بيننا كما تصورتها في البداية؛ بُعيد دخولي، يبدو أن الأوضاع انقلبت رأسًـا على عقب؛ ففيما أصبحت أنا أكثر غرقًا في بحر بـل، صار هو متناقضًا بشـأن علاقتنا؛ لم يكف للحظة عن الانشـغال بطموحاته السياسـية المحلقـة، بـات قلقًـا من أن يكـون قد وقـع في حبي كما قـال؛ لأنه كان ملزمًـا بالعـودة إلـى آركنسـو ليصبح حاكمًـا. أنا أيضًـا صرت قلقة، لم أسـتطع تصور العيش في آركنسو، إلا أنني كنت غير قادرة على تحمل فكرة ترك بل.

على الرغم من أنني كنت مبرمجة للتخرج في 1972م، فقد أصبحت شديدة الحب لبل حتى عشـت معه في نيوهافن عامًا آخر إلى أن تخرج؛ أمضيت السـنة متبعة دورات تنمية أطفال بمركز بيل لدراسة الطفولة، لم أكن أحاول الحصول على شهادة جامعية أخرى؛ فقط كنت أبدد الوقت كي أبقى قريبة من بل كلنتون.

openkandl.com